شخصية مبادرة

في إحدى أمسيات شهر ديسمبر عام ١٩٥٥ الباردة جمعت (روزا باركس) ذات البشرة السمراء التي تعمل خياطة حاجاتها، وتجهزت للعودة إلى بيتها بعد يوم من العمل الشاق المضني، مشت روزا في الشارع تحتضن حقيبتها مستمدة منها بعض الدفء اللذيذ.

التفتت (روزا) يمنة ويسرة، ثم عبرت الطريق، ووقفت تنتظر الحافلة؛ كي تقلّها إلى وجهتها، وفي أثناء وقوفها الذي استمر عشر دقائق كانت تشاهد في ألم منظرًا مألوفًا في أمريكا آنذاك، وهو قيام الرجل الأسود من كرسيه؛ ليجلس مكانه رجل أبيض.

لم يكن هذا السلوك وقتها نابعًا من روح أخوية، أو لمسة حضارية، بل إن القانون الأمريكي آنذاك كان يمنع منعًا باتًّا جلوس الرجل الأسود، وسيده الأبيض واقف، حتى إن كانت الجالسة امرأة سوداء عجوزًا، وكان الواقف شابًّا أبيض في عنفوان شبابه، فتلك مخالفة تُغرم عليها المرأة العجوز.

وكان مشهورًا وقتها أن تجد لوحة معلّقة على باب أحد المحالّ التجارية أو المطاعم مكتوبًا عليها: (ممنوع دخول القطط والكلاب والرجل الأسود).

كل تلك الممارسات العنصرية كانت تصيب (روزا) بحالة من الحزن والألم والغضب، فإلى متى يعاملون على هذا النحو من الدونية وقلة المكانة؟!

لماذا يُحقرون، ويُزدرون، ويكونون دائمًا في آخر الصفوف، ويصنفون مع الحيوانات؟

وعندما وقفت الحافلة استقلّتها (روزا)، وقد أبرمت في صدرها أمرًا.

قلّبت بصرها يمنة ويسرة، فما أن وجدت مقعدًا خاليًا، حتى ارتمت عليه، وقد ضمّت حقيبتها إلى صدرها، وجلست تراقب الطريق الذي تأكله الحافلة في هدوء، إلى أن جاءت المحطة المقبلة، وصعد الركاب، وإذا بالحافلة ممتلئة، وبهدوء اتجه رجل أبيض إلى حيث تجلس (روزا) منتظرًا أن تفسح له المجال، لكنها ويا للعجب نظرت إليه غير مبالية، وعادت لتطالع الطريق مرة أخرى!

ثارت ثائرة الرجل الأبيض، وأخذ الركاب البيض يسبون (روزا) ويتوعدونها إن لم تقم من فورها، وتجلس الرجل الأبيض الواقف.

لكنها أبت، وأصرت على موقفها، فما كان من سائق الحافلة أمام هذا الخرق الواضح للقانون إلا أن يتجه

مباشـرة إلى الشرطة؛ كي تحقق مع تلك المرأة السوداء التي أزعجت السادة البيض!

وبالفعل تمّ التحقيق معها وتغريمها خمسة عشر دولارًا، نظير تعدّيها على حقوق الآخرين.

وهنا انطلقت الشرارة في سماء أمريكا، فثارت ثائرة السود في جميع الولايات، وقرّروا مقاطعة وسائل المواصلات، والمطالبة بحقوقهم بوصفهم بشرًا، لهم حق الحياة والمعاملة الكريمة.

استمرت حالة الغليان مدة طويلة، امتدت إلى ٣٨١ يومًا، وأصابت أمريكا بصداع مزمن.

وفي النهاية خرجت المحكمـة بحكمها الذي نصر (روزا باركس) في محنتها، وتمّ إلغاء ذلك العرف الجائر وكثير من الأعراف والقوانين العنصرية.

وفي ٢٧ أكتوبـر عام ٢٠٠١، بعد مرور ٤٦ سنة على هذه الحادثـة، تمّ إحياء ذكراها في التاريخ الأمريكي، حيث أعلن السيـد ستيـف هامب، مديـر متحف هنري فـورد في مدينة ديربـورن في ميتشيجن عن شراء الحافلـة القديمة المهترئة مـن موديل الأربعينيات التي وقعت فيها حادثة السيدة (روزا باركـس) التي قدحت الزناد الذي دفع حركة الحقوق المدنية في أمريكا للاستيقاظ، بحيث تعدّل وضع السود.

وقد تمّ شراء الحافلة بمبلغ ٤٩٢ ألف دولار أمريكي. وبعد أن بلغت (روزا باركس) الثمانين من العمر، تذكر في كتاب صدر لها لاحقًا بعنوان «القوة الهادئة» عام ١٩٩٤ بعض ما اعتمل في مشاعرها آنذاك، فتقول: «في ذلك اليوم تذكرت أجدادي وآبائي، والتجأت إلى الله، فأعطاني القوة التي يمنحها المستضعفين».

وفي ٢٤ أكتوبر عام ٢٠٠٥ احتشد الآلاف من المشيعين الذين تجمعوا للمشاركة في جنازة (روزا باركس) رائدة الحقوق المدنية الأمريكية التي توفيت عن عمر يناهز ٩٢ عامًا.

يوم بكى فيه الآلاف، وحضره رؤساء دول، ونكّس فيه علم أمريكا، وتمّ تكريمها بأن رقد جثمانها في أحد مباني الكونجرس، وهو إجراء تكريمي لا يحظى به سوى الرؤساء والوجوه البارزة.

ولم يحظَ بهذا الإجراء سوى ٣٠ شخصًا منذ عام ١٨٥٢، ولم يكن منهم امرأة واحدة.

ماتت (روزا) وعلى صدرها أعلى الأوسمة، فقد حصلت على الوسام الرئاسي للحرية عام ١٩٩٦، والوسام الذهبي للكونجرس عام ١٩٩٩، وهو أعلى تكريم مدني في البلاد.

وفـوق هذا وسـام الحرية الذي أهدته لـكل بني جنسها عبر كلمة: (لا) أشهر (لا) في تاريخ أمريكا.

تدبـر: كل حدث تاريخي جلل، وكل موقف كبير مشرف، كان وراءه شخصيـة مبادرة تؤمن بقدرتها على قهر ما اصطلح النـاس على تسميته (المستحيل)، فكيـف يصبح المرء منا شخصية مبادرة؟ كيف يمكن أن نصنع بأيدنا العالم الذي نحيا فيه؟

obeikandl.com